لويـــــــــزا

للكاتب الفرنسي اندريا تيربت

١٨٣٣ — ١٩٠٧

ترجمها عن الانكليزية

محمد بهجت — الموظف بالمساحة

غادر القطار محطة (سيسترون)، ولم يبق من المسافرين سوى المصور أسبريت كابنديت وأمامه فتاة؛ ولأنه استقل القطار فى بدء رحلته فى الفجر من (بيرتس)، فقد غلبه النوم فراح فى سبات عميق، واستفيظ عند بذوغ الشمس فى الوقت الذى فتحت فيه الفتاة عينيها الناعستين، وألقت الخمار ذا الخيوط السوداء السميكة الذى كانت ترتديه جانبا، وأخذت ترجل شعرها المبعثر الجميل، وتجمل وجهها فى مرآة صغيرة.

ويلوح أنها تناهز الرابعة والعشرين من سنيها، مملوءة صحة، عيناها زرقاوان جميلتان، تشعان شعاعا جذابا، على شفتها العليا خال الجمال.

لاحظ المصور هذا الجمال، وأشداه خصرها النحيل، وقدها الأهيف الجميل، وصدرها الناهد، ويداها البضتان؛ وبينا يرمقها خفية، إذ رآها قد أخرجت من حقيبة سفرها رغيفا من الخبز الجاف، ثم أخذت تبحث فيها عن شىء بلا جدوى، فلما أعياها البحث، استكنت فى مكانها، بعد أن تنهدت تنهدة قصيرة، فأخرج المصور من حقيبته، مدفوعا بعامل الشفقة، قطعة من الشيكولاتة، وقدمها إلى الصبية، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تنم عن طيبة طبعه، ويده اليسرى تعبث بلحيته الجعدة قائلا: اسمحى لى أن أقدم لك قطعة من الشيكولاتة عوضا عما نسيته...

وبعد تردد، قبلتها شاكرة، واقترحت أن يقبل هو أيضا نصف رغيفها، فقبله؛ وأخذا يأكلان بشهية قوية، بينا كان القطار ينهب سهل (بوش)، فلم يفتهما أن تكتحل أعينهما بمشهد الجبال الشاهقة المترامية على بعد سحيق، وكذا الحدائق الغناء النامية حول الدور التى تعلوها، وأن يزودا أنظارهما بمرآى أشجار البرقوق والكرز، والجداول التى تجرى على المنحدرات المنعكسة عليها أشعة الشمس فترى كالفضة الجارية، والكلأ النامى فى المروج والزهر يبدو فيه كالنجوم الساطعة.

وهذه الأكلة البسيطة أزالت الكلفة بينهما ، وفاز المصور بثقة رفيقته ؛ فأخذ يحدثها عن سنه ، وصناعته ، وأشغاله ، وأخبرها أنه آت من (سان روفايل) ، وذاهب إلى (جرينوبل) ليقابل عملاءه بشأن بعض الصور ؛ وهم عائلة واحدة يتجرون فى صنع القفازات ، ليس فيهم فرد يفخر بحسن خلقته ، ينعمون بثروة طائلة ، ومعاملاتهم حسنة ، ثم أخذ يشرح بعبارات تهكمية وصف نماذجه المستقبلة ، فضحكت الفتاة من قرارة نفسها ، وأخذت أواصر الصداقة تستحكم بينهما ؛ وفهمت منه أنه يشتغل فى التصوير ، وفهم هو أيضا منها أنها تدعى الآنسة لويزا ؛ وعرض عليها أن يعمل لها صورة ، على أن تمكث يومين فى (جرينوبل) .

فقالت له وحمرة الخجل تكسر وجنتيها : أشكرك ، ولكنى لن أذهب بعيدا إلى ذاك البلد ، وسأتخلف فى مونستيردى كليرمونت .

وبدأت تقص عليه تاريخ حياتها : فهى مربية تشتغل فى أسرة مسجل فى (اكس) ، يتيمة ، ليس لها من تمت له بصلة القرابة سوى عم وعمة يعيشان فى (مونستير) ، وهما يعملان على زواجها من تاجر معروف هناك أعزب ، ليس له أبناء ، يدعى (ليشوديل) ؛ وهى آتية لزيارتها فى إجازة عيد الفصح ، ولتقابل هذا السيد فى دارها ، لأنها لم تر سوى صورته الشمسية .

واستمرت فى حديثها بصراحة قائلة :— وإن هذا الرجل قد بلغ من الكبر عتيا ، ذو مظهر لا يبعث على الرضى ؛ غير أنى تعبت من سيطرة الغير على ، ويحزننى أن أحيا وحيدة لا أنعم بمن يبادلنى الحب الذى لم أتذوق أى قطرة منه ، ولو أنى أؤكد أن عشرته لا تسرنى ؛ ولكن أظن أنى سأقبله كزوج .

وبينما كانت تلقى هذه الاعترافات ، كانت تتأوه وشفتاها الحمراوان الجميلتان مفتوحتين قليلا تظهر من بينهما أسنانها اللؤلؤية ، ورأى المصور فى عينيها الزرقاوين الجذابتين ذلك البريق المغرى ، الدال على عذاب المرأة التى تنشد الحب ، وتتلهف عليه ، وتشتاق له ؛ وهذا القول الملقى على عواهنه ، وهذا الاسترخاء بغير حذر ، يغرى على القبل التى تتطلبها شفتاها ، واعترافها الصريح بتعبها من وحدتها فى الحياة ، أيقظ فيه الرغبة إلى مغازلتها ، وتلك العوامل مجتمعة ، بعثت فيه الميل الشديد فى أن يحل محل هذا الشريك المجهول ، الذى تحن هذه الفتاة لقضاء سنى شبابها معه .

فصاح قائلا : عجبا ! أتحكمين على نفسك بالزواج من صاحب حانوت عجوز دميم الخلقة ، وتسجنين فى قرية ؟! هذا أمر مستحيل ! أنت فتاة جميلة ، وليس من حقك أن تضحى بنفسك على هذا الوجه ، وتقضى على فؤادك ، أرجو أن لا تقترفى هذه الحماقة .

وليقوى احتجاجه أمسك بيديها ، فضحكت فى بادىء الأمر واستسلمت إليه ، ولكنه أخذ يضغط عليها شيئا فشيئا ، ففزعت وحاولت عبثا أن تسحبهما من بين يديه ، وفى أثناء ذلك اعتلا القطار هضبة عالية قد ران عليها الضباب الساطع ، ثم اجتاز بعدئذ مرجا أضاءه نور الشمس ، فدفع إلى العربة هواء يحمل بعض الزهور البيضاء الساقطة من أشجار الكرز ، يكسوها الثلج

فامتلأت العربة بأريج الربيع . وسار القطار بعدئذ فجأة فى ظلمة نفق شديد الحلك ، فاستخدم المصور هذا الظرف ، وجلس بجوارها يلاطفها ، ولف ذراعه حول خصرها ، والفتاة فى حيرتها تدافع عن نفسها ، يكسو وجهها الخجل ، وتملأ مشاعرها الوجل ، حتى خرج القطار إلى الضوء ، فعاد إليها بعض الاطمئنان ، بينما كان يناجيها المصور قائلا : دعينى أحبك .

ولم يلبث أن عاد القطار إلى سيره فى نفق ، حتى فزعت لويزا ، إذ شعرت بشفتى رفيقها الجسور ، تنهالان على عينيها وشفتيها تقبيلا ، واعتراها فى الوقت نفسه شبق ورغبة مغرية ، إلا أنها أمالت رأسها وقاومت بضعف ، وأنقذها من هذا الموقف عودة القطار إلى الضوء ووقوفه أمام محطة (سيلين) ، فتنهدت وتراجعت خجلة ، وقالت : ياإلهى ! سنكون فى أقرب حين فى (منستير) ، فأرجوك أن تدعنى بمفردى ، وانتصبت على قدميها وأمسكت بقلنسوتها ، ونظمت شعرها بسرعة ؛ فأخذها المصور بين ذراعيه ، وقال : ماشأن (مونستير) بنا ؟! أنا أحبك ، ومحال أن أتركك ، إذ لابد لى أن آخذك معى . فتمتمت قائلة : إنك مجنون ، أحمق . وتخلصت منه قليلا ، ونظرت من النافذة فظهرت لها أطراف القرية المنعكسة عليها أشعة الشمس فى وسط الحقول وغابات الصنوبر ، وأمكنها أن تميز محطتها المنعزلة عنها ، ورأت على رصيفها ثلاثة أشباح مجتمعين فى هيأة المستقبلين ، فقالت له : إنى أرى عمى وعمتى ، ولا بد أن يكون ثالثهما السيد (ليشوديل) . فأجابها المصور بدهاء : إنه دميم الخلقة جدا — وقام سداً حائلا بين الفتاة والباب ، وبحركة فجائية أقفل النافذة وبسط ذراعيه ، وقال مؤكدا : كلا لن تكونى ضحية لهذا الشرير ، إنى أحبك ولا بد لى من الاحتفاظ بك .

وبعد أن هدأ سير القطار ، وقف ، وسمع صوت الخفير وهو يجرى بجانب العربات صائحا : مونستير دى كلير مونت !

ولاعتقاد المربية أن كل هذا إن هو إلا دعابة ، حملت حقيبتها ومظلتها ، وقالت : تعال ياسيدى ، وكن جادا ، أفسح لى الطريق .

فأجاب المصور مؤكدا : لا يمكن مادمت حيا .

ثم انهال عليها بالقبلات ، بينما كان صوت العم والعمة مسموعين يناديان لويزا ويطلان على العربات ، ولكن نداءهما ذهب مع الريح ، وحال المصور بجسمه دون رؤيتهما ابنة أخيهما .

وناشدته لويزا والدمع يترقرق فى عينيها أن يفسح لها الطريق ، إذ أن هذا لايليق ، ولكن عبثا كانت تحاول ، فصفر القطار ، وسار ؛ وسرعان ما اختفت المحطة كالحلم ، وقد أوهن لويزا التعب من المقاومة غير المجدية ، فجلست على المقعد ، وحاول المصور أن يطوق خصرها بذراعيه ، فصدته بشدة ، وأخفت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء . وحاول المصور أن يسرى عنها بكلمات عذبة ، غير أنها أخذت تعبر عن كراهيتها واستنكارها لفعله الشائن ، فصمت ، إلى أن وصلا إلى محطة (فيزيل) ، وعندها امتلأت العربة بالمسافرين إلى (جرينوبل)

لقضاء عطلة الأسبوع، واستكنت الفتاة فى ركنها عابسة مولية إياه نصف ظهرها ، وأخذ هو يستعرض فى نفسه هذا الفعل الجنونى الذى اقترفه نحو هذه الفتاة،والتبعة التى تقع عليه من جراء ما ارتكبه ، ولم يتبادلا أية كلمة حتى وصلا (جرينوبل) ، فقادها إلى خارج العربة صامتا وحمل حقيبتها ، وهى تنظر إلى مايفعله والخجل والدهشة يملآن مشاعرها فكأنها كالمخدرة ، وتبعته منقادة كاينقاد المنوم. فتأبط ذراعها ، وأخذها إلى فندق فى ميدان المحطة ، وما أن انفردا فى إحدى غرفه حتى جلست لويزا على مقعد وأخذت تبكى بصوت عال ، وتدق يداً بيد كمن فقد الأمل، تنبعث التنهدات من صدرها بحالة تنم عن الحزن الشديد ، ففزع المصور لأنه لم يك ينتظر هذا الانفجار الشنيع ، وركع أمامها ، وأخذ يحاول تهدئتها بضمها إليه،ولكنه كان يحاول عبثا ، إذ تضاعفت تأوهاتها، وصدها له بازدراء ؛ وصاحت قائلة : اذهب عنى ، لوكان باق فيك ذرة من الشعور الحى؛ لما أتيت أكثر مما اقترفت، ماأتعس حظى! فسيستعلم أقربائى عنى فى (اكس)، وسوف يكون الرد مما لايثلج له صدرى،وستمتقد تلك الأسرة فى أسوأ الاعتقاد ، وعندها أطرد شر طردة يتندى لها الجبين خجلا،وأبقى بلا عمل ، كل هذا من جراء خطأك وسوء ظنك،ومعاملتك لى معاملة المرأة السيئة السيرة ، لقد فقدت كل شىء !

وتقاطرت دموعها ثانية ، وتنازعت العوامل الشديدة فى نفس(اسبريت)، وتأكد من سوء مافعل،وأن ما هى إلا جريمة خطيرة.

والواقع أنه لم يك شريرا ، ولم يعرف عنه سوء الخلق، وتجلت أمام نظره جريرته الكبيرة، وهى إرغام امرأة على فعل شائن على كره منها ، وآلمه أن يرتكب هذا الجرم نحو هذا المخلوق الجميل الباكى ، فافترسه توبيخ الضمير ، وعول على أن يكفر عن جرمه ، وأن يمحو هذه الاساءة ، فقبض فجأة على يدها ، وقال لها فى احترام : سامحينى ، ولا تندفعى فى الحزن إلى هذا الحد ، وسأعود بك توا إلى المحطة ، وبذا سيفلك أول قطار يعود إلى(مونستير) ، وبهذا أكفر عما فرط منى ، وتصفحى عما ارتكبت من طيش ونزق، وتخبرين أهلك أنك كنت نائمة فى القطار ولم تستيقظى إلا فى(جرينوبل)،جففى عينيك فانى وإن كنت قد أجرمت جرما كبيراً غير مغتفر فى نظر العاقلين ، غير أنى رجل ذو أخلاق مرضية .

وعاد بها إلى المحطة ، واشترى لها تذكرة ، واعتلت القطار ،فزودها أيضا ببعض الحلوى والفاكهة والكعك ، فشعرت بالنجاة ، وعادت إلى حالتها الأولى ، وهدوئها ، وتجلى فى أعينيها الزرقاوين ذلك البريق الجذاب ، وارتسمت على شفتيها الحمراوين ابتسامة الشكر له عندما أوصد عليها باب العربة .

وسار القطار ، فوقف المصور ينظر إليه ، وقد امتدت على عرباته خطوط من الدخان الكثيف ثم تنهد بحزن ، وقال : وارحمتاه ! فستتزوج السيد ليشوديل ! وارحمتاه !

محمد بهجت